الفصل الثالث

المنطلق النظري العلمي للبحث في اللغة المنطوقة

المنطلق النظري العلمي للبحث في اللغة المنطوقة

على الرغم من أن اللسانيات قد تأخرت في عنايتها باللغة المنطوقة عناية جادة، فإنها قد احتلت مركز الثقل في الدراسات المعاصرة بفضل النهضة الهائلة في الدراسات الميدانية للهجات والعناية بجمع التراث الشفهي ودراسته، ولتفوقها على اللغة المكتوبة في احتواء مكونات غير كلامية تؤثر في التلقي والتفسير. وقد تغيرت الصورة التي يرسمها جون لاينز John Lyons بقوله: إن جميع علماء اللغة ومعظم الفلاسفة يؤيدون مشافهة على الأقل مبدأ إعطاء الأولوية للغة المحكية (المنطوقة)[1]. لقد تغيرت هذه الصورة المبسطة إلى حد بعيد، وصار الاعتراف بالأولوية للغة المنطوقة اعترافًا شفاهيًا – من واقع النهضة التي شهدتها العناية باللغة المنطوقة منذ الستينيات من القرن العشرين – صار أعمالاً علمية مستفيضة.

ويمكننا أن نوجز المنطلقات النظرية للبحث في اللغة المنطوقة فيما يلي:

أولاً: أثر البحث في اللغة المنطوقة في التخلص من الأحكام الحدسية والافتراضية على شيوع ظواهر لغوية بعينها، بدرجات متفاوتة، في نصوص اللغة المكتوبة والمنطوقة معًا. من هنا عرضت مرة أخرى بعض القضايا النظرية التي لم يكن يتوصل إلى تفسيرها إلا بواسطة المعالجة الكمية والإحصائية.

ثانيًا: أن مركز الثقل في البحث في اللغة المنطوقة يكمن في مناهج العمل المأخوذة عن البحث الاجتماعي الإمبيريقي.

ثالثًا: أن اللغة المنطوقة هي أسبق وسائل الاتصال اللغوي الإنساني وأوسعها انتشارًا. ويعد متوسط ما ينتجه الفرد العادي من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب. ومن أجل ذلك فإنه من السائغ لعالم اللغة Linguist – على عكس دارس فقه اللغة philologist – أن

(1) جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ص٢٨

يهتم أولاً باللغة المنطوقة، ثم ثانيًا باللغة المكتوبة (باعتبارها – إلى حد كبير أو صغير – تمثيلاً صادقًا للغة المنطوقة)[1].

رابعًا: على رغم التسليم بالاختلاف الواضح بين اللغتين: المكتوبة والمنطوقة. فإنه ينبغي مراعاة التفاعل بينهما وطرق هذا التفاعل. ولابد من التنبيه إلى أنه في الوقت الذي نقر فيه بحقيقة تأثر إحدى اللغتين بالأخرى على مستوى البنية وتناوبهما على مستوى الوظيفة، فإن هناك حالات يصعب فيها القول باختصاص إحدى اللغتين دون الأخرى بهذه البنية وتلك الوظيفة. ونحن ننظر إلى هذا التفاعل بين اللغتين على أنه أمر طبيعي وحتمي؛ ذلك أن العلاقة بين المكتوب والملفوظ علاقة طبيعية وحتمية كذلك. ومن هنا نريد أن نوجه هذا التفاعل الوجهة التي يشير إليها فندريس بقوله إن بعض العلماء يميل إلى اعتبار اللغة المكتوبة خادمًا مطيعًا للغة الكلام[2]. فالعلاقة بينهما أخذ وعطاء وليست علاقة خادم بمخدوم.

خامسًا: ينبغي أن تنطلق نظرية اللغة المنطوقة من ضرورة اللحاق بالتغيرات التي تطرأ على هذه اللغة والإحاطة بها وإعادة النظر فيها من آن إلى آخر. ومما يذكر هنا أن التطور والتغير في اللغة المنطوقة أسرع منه – بوجه عام – في اللغة المكتوبة، وذلك بسبب العلاقة المثالية بين اللغة المكتوبة واللغة المشتركة التي هي بطبعها لغة محافظة، بينما يبدو مجال التأثيرات الفردية في اللغة المنطوقة أرحب وأكثر انفتاحًا.

ويشير ماريوباي إلى فكرة مهمة هي أنه ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن الصيغة المكتوبة للغة – وخصوصًا إذا كانت اللغة واسعة الانتشار – تقوم بدور مهم في تعطيل تيار التغير الذي يلحق لغة الكلام بسرعة. ويشرح ماريوباي هذه الفكرة بأن لغة الكلام إذا تركت وشأنها تصبح عرضة لتغيرات طبيعية فطرية تبعدها عن المركز، وتعبر عن نفسها بسرعة خلال الزمن، وتظهر في شكل لهجات عبر الزمن. وكلا العاملين

---

(1) ماريو باي: أسس علم اللغة، ص٤٠

(2) فندريس: اللغة، ص٤١٤

(التطور الفطري والانقسام إلى لهجات) يعوق تحقق الغاية العملية للغات وهي الاتصال. إن الصيغة المكتوبة بفرضها مستوى معينًا من الصواب – مهما كان تعسفيًا – تعطل حركة هذين العاملين وتعوق فعاليتهما. إنها تحرك قوى مركزية جاذبة – وإن كانت صناعية – تعادل القوى المركزية الطاردة الموجودة في اللغة. ويستخلص ماريوباي من ذلك كله أن اللغة المكتوبة تساعد على تحسين وسائل الاتصال – حتى في مجالات التفاهم الشفوي – بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة. إن فائدتها – على الأقل – تتمثل في إضفاء روح اللغة الأدبية المشتركة، التي تتمتع باهتمام الدارسين، على اللغة المتكلمة (المنطوقة)؛ ليسهل التفاهم بها[1].

سادسًا: ينبغي أن يتسم البحث في اللغة المنطوقة بالحذر والحيطة في كشفه عن ظواهر هذه اللغة وإشكالياتها في ضوء اللغة المكتوبة؛ فقد يكون في المقارنة بينهما ظلم للغة المنطوقة من بعض جوانبها؛ لأنه – إذ ذاك – يؤدي إلى حكم على لغة ذات طبيعة خاصة على أساس القياس النظري والتحليلي على لغة أخرى ذات طبيعة مختلفة اختلافاً بينا. من ناحية أخرى، فقد نسارع إلى الحكم على صيغ أو تراكيب منطوقة – في ضوء نظائرها المكتوبة – بالفساد أو الخطأ أو الرداءة، حتى تبدو لنا ذات يوم وقد اكتسبت شرعية الدخول في اللغة المكتوبة.

سابعًا: قادت البحوث التي أجريت على الملفوظات اللغوية باعتبارها ملفوظات تعكس جوانب عقلية وفعلية إلى نقلة في الإسهام النظري للبحث في اللغة المنطوقة. وهي نقلة ظهرت آثارها الإيجابية على التطور العام لعلم اللغة.

ويؤكد البحث المنهجي الفعلي – كما يذكر كل من شانك وشونتال – ضرورة النظر إلى الملفوظات اللغوية غير منعزلة عن سياقاتها التعاملية Handlungszusammenhang التي تنتج عنها وتنشأ فيها[2]. وهذا ما تلح عليه دائمًا بحوث اللغة المنطوقة.

---

(1) ماريوباي: أسس علم اللغة، ص٦١-٦٢

(2) Schank / Schoenthal, op. cit., S.5

في ضوء ذلك، ينبغي لكل بحث في اللغة المنطوقة أن يأخذ في حسبانه هذه السمات الأولية والمنطلقات النظرية، سواء في ذلك وجوه التباين عن اللغة المكتوبة في بعض العناصر اللغوية، والخصائص الفونولوجية والتركيبية، والوظائف التواصلية؛ والقابلية للتغير والتطور، والاحتفاء باللغة غير اللفظية المرتبطة بالثقافة الشعبية والتي هي ركن أصيل في دراسة المعنى في اللغة المنطوقة.